بقلم المؤرخ الشيوعي الفرنسي : جان شينو

سياسة انشاء الجبهات

اطلاق مبادرات القواعد

العبقرية العسكرية

الجذور الثقافية القومية

في الحلقة الاولى من هذه الدراسة التي نشرت في العدد الماضي ، عن « الطابع القومي للشيوعية الفيتنامية » ، قدم المؤرخ الشيوعي الفرنسي « جان شينو » عرضا للجذور القومية للثورة الفيتنامية ، من حيث « الربط الوثيق بين النضال الثوري من اجل الاشتراكية ، وبين النضال من اجل نهضة فيتنام القومية » .

وفي هذه الحلقة الثانيه والاخيرة من هذه الدراسة يتحدث المؤرخ المذكور عن « سياسة انشاء الجبهات » و « اطلاق مبادرات القواعد » والواقع الايديولوجي والعسكري للفيتنام ..

« الهدف »

من خلال تحولاته المثالية استطاع الحزب الشيوعي الفيتنامي ان يملك تراثا نضالياتينا وتجربة طويلة ونواة من المناضلين الشديدي الانضباط والذين يتمتعون بشهرة كبيرة .

وهذا كان مكمن قوته .

لكن الحزب لم يتمكن دائما من تجنب المواقف الجامدة التي تتميز بها الاجهزة المتمركزة . وهذا ما حدث مثلا بالنسبة للاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٥ ، فقد تم هذا الاصلاح باساليب شديدة القساوة تحت مسؤوليه « ترونغ شنه » الامين العام للحزب وقتذاك . وقد كانت هذه الاخطاء جدية الى حد انها ادت الى اقالة ترونغ شنه من منصبه وحلول هو شي منه نفسه محلـه . ومن ناحية اخرى فان المفاهيم والاساليب التي حكمت منذ ١٩٥٤ علاقة الحزب في هانوي بالمثقفين والفنانين هي اقرب الى مفاهيم جدانوف منها الى اساليب حملة « المئة زهرة » في الصين او اساليب دوبتشيك .

ولم يعمل الحزب منفردا الا فيما ندر ، فقد تحرك دائما في اطار اجهزة اوسع اي في اطار جبهات (« متران ») . « المؤتمر الهندي الصيني » عام ١٩٣٧ ، « الفيتمنه » عام ١٩٤١ « الين فية » عام ١٩٤٥ الذي استوعب الفيتمنه عام ١٩٥١ جبهة الوطن التي تشكلت في هانوي عام ١٩٥٦ ، كلها مراحل من استراتيجية متماسكة ومستمرة ادت الى تشكيل جبهة تحرير جنوب فيتنام وهذه الاستراتيجية هي ميزة اساسية من مميزات الاساليب التنظيمية للشيوعية الفيتنامية .

وتتمتع هذه الجبهات بعدد معين من الميزات المشتركة : فهي ليست « كارتيل منظمات » بل هي « حركات » تتمتع بحياة مستقلة ، وتسعى الى حشد الطاقات ، وخاصة على مستوى القاعدة . ويمكن ان تنتسب الى الجبهات منظمات مختلفة جدا تضم اما فئات اجتماعية (منظمات النساء ، العمال ، الشباب الخ...) واما الفئات القومية (الاقليات الجبلية ، المجموعات المنتمية الى شعوب جارة) واما التيارات الرئيسية (البوذيون ، الكاثوليك ، الكوداي ...) واما احزاب سياسية (وخاصة الاحزاب المتحالفة مع الشيوعيين كالحزب الديمقراطي والحزب الراديكالي ـ الاشتراكي).

لقد ذاب الشيوعيون في هذه الجبهات، لكنهم في نفس الوقت ابقوا على جهاز خاص بالحزب الشيوعي . ويتعاون الشيوعيون في هذه الجبهات مع مجموعات تستلهم ايديولوجيات سياسية ، او سياسة دينية مختلفة ، ويتجنب الشيوعيون بأي ثمن احتكار المراكز القيادية داخل الجبهة ، ان الاهتمام باعطاء الحلفاء مسؤوليات فعلية وليس محض شكلية ، هو من الميزات الجوهرية لمفهوم الشيوعيين الفيتناميين للجبهة المتحدة . واخيرا ترتكز هذه الجبهات على برنامج، هو احد العناصر الاساسية في اشعاعها السياسي ، وهو التعبير المشترك للمطامح الشعبية .

وقد لعب برنامج « الفيتمنة » او برنامج جبهة تحرير جنوب فيتنام دورا كبيرا في التعبئة السياسية للطاقات الشعبية ضد اليابان ثم ضد الامركيين .

ومن ناحية اخرى ، تمد الشيوعية الفيتنامية جذورها عميقا في الاوساط الشعبية ، وقد اهتم الحزب دائما بتنمية المسؤوليات والمبادرات في القواعد ، لكي تشكل ثقلا موازيا للاجهزة السياسية القادة مركزيا ، ولاعطاء هذه الاجهزة قدرتها على التاثير على الواقع .

وسنكتفي هنا باثبات ثلاث امثلة عن « خط الجماهير » كما طبقه الشيوعيون الفيتناميون :

- معركة ديان بيان فو ـ
- القرار بالانتقال من الكفاح السياسي الى الكفاح المسلح في جنوب فيتنام
- مقاومة القصف الامركي في الشمال منذ عام ١٩٦٥ .

ديان بيان فو

ان ديان بيان فو هي لحظة سياسية اكثر مما هي لحظه عسكريه من تاريخ الحركة الوطنية الفيتناميه .

كان الانتصار الفيتنامي ، في الاساس، ثمرة القدره على التعبئة السياسية لمئات الالاف من «الكولي» (حملة الاثقال) . ولو لم يكونوا يتمتعون بهذا المقدار من الوعي السياسي ، لما استطاع هؤلاء «الكولي» نقل المؤن والاسلحة والذخائر الضروريه للانقضاض على المعسكر الفرنسي الحصين .

لقد قلبت هذه التعبئة السياسية لصالح الفيتناميين ميزانا للقوى ، كانت هيئة الاركان الفرنسية تعتبره لصالحها على المستوى العسكري المحض (خاصة لانها كانت تظن انها تملك سيطرة الجو) .

قرار خوض القتال

ان القرار الذي واجهته الكوادر الشيوعيه في جنوب فيتنام عام ١٩٥٨ كان بالغ الخطورة : هل كان يجب الاستمرار « بالنضال السياسي » ضد حكومة سايغون (وفود فلاحين الى السلطة، مظاهرات عامة ، توزيع مناشير ...) والمطالبة بتطبيق اتفاقيات جنيف وعقد انتخابات في الجنوب ، او هل كان يجب الانتقال الى الكفاح المسلح ؟

كانت امكانية عقد انتخابات تبدو اصعب يوما بعد يوم ، ولكن ، الم يكن هنالك احتمال ان تفجر انتفاضة عامة سيقود الى مغامرة ؟

لقد قضى الشيوعيون في الجنوب اكثر من عام لكي يحسموا الموضوع . وبصبر فائق ، ارسلوا الكوادر الى القرى لكي يتناقشوا مع الفلاحين، ويتعرفوا بدقة الى مزاجهم وجوهم النفسي ، ويقدروا الى اي حد اصبحت سيطرة ديام لا تطاق فعلا .

وقال لي احد قادة جبهة التحرير : « كنا ندرك تماما كم سيكون الكفاح عنيفا وشاقا ، ولم نكن نريد ان تلومنا الجماهير فيما بعد لاننا زججنا بها في المعركة قبل الاوان ؛ كنا نريد ان تاخذ الجماهير نفسها قرار الانتقال الى الكفاح المسلح ، مع كل النتائج التي يمكن ان يفرزها مثل هذا القرار في المستقبل » .

وبالفعل نتفق الاخصائيون من امثال دوفيلم ونورشيت ويك على الاعتراف بان الانتقال الى الكفاح المسلح قد تم عفويا ، محليا ، انطلاقا من القاعده .

واخيرا تؤكد مقاومة شمال فيتنام للقصف الامركي هذا التداخل الوثيق بين الجهاز السياسي والقاعدة ، هذا التداخل الذي يعد من مميزات الشيوعية الفيتنامية .

ان مبادرات الاناس البسطاء ووعيهم التام لمسؤولياتهم قد ادى الى أن يستمر زرع الحقول بانتظام ، وان ينمو البحث العلمي والتعليم الجامعي ، وان يعاد بناء خطوط المواصلات بسرعة بعد كل قصف ، وان يتم كشف المخربين فورا بعد انزالهم من الطائرات. ولقد كان من المستحيل الوصل الى مثل هذه النتائج لو تم اتخاذ القرارات فقط من فوق وبطريقة تسلطية .

التماسك القومي في الفيتنام

تميز الشعب الفيتنامي بتماسك قومي عجيب ، اثار انتباه الرحالة في الفترة السابقة للاستعمار . لكن التكوين الجغرافي الارض الفيتنامية هو مستطيل وممتد على ١٢٠٠ كيلومتر، وبوفر فروقات اقليمية وخصائص محلية لا غرابة في انها انعكست على تطور الحركة الشيوعية الفيتنامية .

ان شمال البلاد وجنوبها ، اللذين كان يطلق عليهما اسم التونكين والكوشيشين ، واللذين شكلا القاعدتين الاساسيتين للشيوعية الفيتنامية، ليست لهما نفس الملامح التاريخية ولم يقدما نفس سهولة النمو بالنسبة للحركة الشيوعية .

ان شمال البلاد هو منبع التقاليد القومية القديمة ، وقلب فيتنام منذ الف عام ، بينما لم يتم احتلال الجنوب من قبل الحركة الاستيطانية الفيتنامية سوى في القرن الثامن عشر .

ويغلب في الشمال الميكروفزيا (الملكية الصغيرة) من النوع الصيني ، بينما الجنوب هو بلد الملكيات الكبرى والمزارع الفخمة، ثم دخل الاقتصاد العصري بشكل اوسع في الجنوب حيث للبرجوازية وللطبقة العاملة اهمية نسبية بينما لهما اهمية اقل في الشمال . وقد سمح الوضع الكولونيالي بتعميق هذه الفروقات : فالجنوب كان « مستعمرة » بالمعنى الصحيح حيث نظام الصحافة ، والجمعيات والانتخابات كان يقدم اكثر تسهيلا للحركات السياسية العصرية مما كان يسمح نظام « المحمية » في الشمال .

في الشمال والجنوب، كانت الحركة الشيوعية تعمل اذا على ارض مختلفة . نضيف الى ذلك صعوبة المواصلات (المسافة ، الرقابة البوليسية) التي ادت حتميا بالتنظيمات الشيوعية [illegible] الجنوب الى التمتع بهامش مبادره واسع نسبة لتنظيمات الشمال .

والنتيجة كانت ان تاريخ الشيوعيه الفيتناميه [illegible] يعطي اسقطاب ، وميلا نسبيا من الجنوب [illegible] مواقف تكتيكية وحتى استراتيجيه [illegible] عن مواقف الشمال .

[illegible] « جبهة النضال » مثلا هي خاصه [illegible] سايغون ؛ فاللجنة المركزيه ، مسنوده من [illegible] الكومنترن ، لم ترض بهذا التحالف الجرئ [illegible] التروسكيين ودفعت الى فصمه في عام ١٩٣٧ .

[illegible] ، في عام ١٩٤٥ ، عندما انهار الاحتلال [illegible] ، لم يكن توازن القوى السياسيه [illegible] في الجنوب هو نفسه في الشمال . [illegible] جمهوريه فيتنام الديمقراطية ، التي بعث [illegible] الاستقلال الوطني الفيتنامي، قد اعلنت [illegible] الشمال ولم تمد سلطتها الا الى وسط [illegible] . في الجنوب في زمن الانهيار الياباني ، [illegible] الشيوعيون « لجنة تنفيذية للنام ـ بو » [illegible] محليا سلطة جمهورية فيتنام الديمقراطيه [illegible] التشكيلة السياسية لهذه اللجنه كانت تختلف [illegible] عن مثيلاتها في الشمال، كانت اللجنة تضم [illegible] قدامى من انصار اليابان ، وممثلين عن [illegible] السياسية ـ الدينية كالكاودائيين [illegible] ، وحتى بعض التروتسكيين القدامى.

[illegible] هذا التحالف اقل صلابة من تحالف الشمال [illegible] جمع بين الشيوعيين والوطنيين في حكومة [illegible] منه . وقد انفجر التحالف الجنوبي بعد [illegible] ، مضيفا مصاعب اخرى الى مصاعب لجنه [illegible] ـ باو التي بدات تواجه عودة الفرنسيين [illegible] الى سايغون في ايلول ١٩٤٥ .

[illegible] وحدة الحركة الشيوعية الفيتنامية هي اذا [illegible] عن ومنتزعة من التاريخ والجغرافيا . [illegible] تاكدت هذه الوحدة خلال الحرب ضد [illegible] ، بمقدار ما كانت تعزز السلطة السياسيه [illegible] العسكرية لجمهورية فيتنام الديمقراطية. لكن [illegible] الوحدة تعرضت لحواجز جديدة مع تقسيم البلاد [illegible] طول خط العرض السابع عشر عام ١٩٥٤ .

[illegible] اخر الشيوعيون قدر المستطاع موعد تكوين [illegible] سياسي منفصل في الجنوب : فلم تشكل [illegible] تحرير جنوب فيتنام الا في نهاية عام ١٩٦٠ عندما اصبح من الضروري تنسيق النضال السياسي والعسكري على امتداد الجنوب . [illegible] اليوم ، يبقى في هذا الموضوع نوع من [illegible] .

[illegible] ملاحيات جبهة التحرير والحزب الشعبي [illegible] تتوقف عند حدود خط العرض السابع [illegible] . لكن حزب لاو ـ دونغ في وثائقه الرسمية [illegible] بمناسبة المؤتمر الثالث عام ١٩٦٢) يعتبر [illegible] مسؤولا ليس فقط عن الجزء الشمالي من [illegible] ، بل عن مجملها . وبمرونة هي من صميم [illegible] الفيتنامي ، يحاول الشيوعيون في نفس [illegible] التاكيد على الطابع الوحدوي لحركتهم تكييف مع الظروف الخاصة للنضال السياسي في الجنوب

وفي حزيران ١٩٦٩ ايد شيوعيو الشمال تشكيل « الحكومة الثورية المؤقتة » لجنوب الفيتنام ، قابلين ضمنيا ان تتوقف صلاحيات حكومه هانوي وشرعيتها على حدود خط العرض السابع عشر ، على الاقل بصورة مؤقتة .

لا ازمات ايديولوجية

على الرغم من وجود العديد من المثقفين بين مؤسسيها الاوائل وعدد لا يستهان به بين قادتها الحاليين ، لم تعش الحركة الشيوعية الفيتنامية ازمات ايديولوجيه عميقة .

ولم تنتج هذه الحركة مفكرين ماركسيين من طراز غرامشي ولي دا ذاو ولوكتش وشاف، ولم تقدم مساهمة نظرية عامة للحركة الشيوعية العالمية . هناك استثناء واحد ، لكنه من حجم كبير : عنيت مجال الفكر العسكري .

يقدم الفكر العسكري الفيتنامي نفس الملامح القومية ، ونفس الخصائص المبكرة التي تميزت بها الكنفوشية الفيتنامية عن الفلسفة الكنفوشية الصينية الكلاسيكية ، في الماضي . لم ينتج الفيتنام الامبراطوري هو ايضا فلاسفة كنفوشيين كبارا ، او انظمة فكرية طموحة ، بل استوعب بشكل عجيب الممارسات الكنفوشية في الحياة الاجتماعية الملموسة ، واستخلص منها سلوكية يومية وفنا للحياة .

ان النموذج الكنفوشي الفيتنامي، هو الماريشال نفوين تراي ، الذي قاد في القرن الخامس عشر النضال ضد الغزو الصيني ثم كرس نفسه لاعادة بناء البلاد ولعمرانها ، وهو صاحب عدة مؤلفات اخلاقيه ومجموعات من المعالم العملية . وعلى مستوى اخر ، طابعا عدم الماركسيه الفيتنامية نفس الطابع العملي والملموس .

وهذا الطابع يبدو واضحا في مفهوم كمفهوم « النوي كو » (اي الظرف الملائم) .

ان ثورة اب مثلا التي سمحت للشيوعيين في عام ١٩٤٥ باستلام السلطة ، مستفيدين من الاستلام الياباني هي تطبيق لمفهوم « النوي كو » : فبين انهيار السلطة اليابانية ووصول الحلفاء (الفرنسيين والانكليز في الجنوب والصينيين في الشمال ، حسب اتفاقيات بوتسدام) ، مر الشيوعيون بظرف ملائم جدا ، ولكنه ايضا قصير جدا ، وكذلك عندما كان قادة جبهه تحرير جنوب فيتنام يسالون عن امكانيه تحويل الجبهة الى حكومه مكونه شكليا ، كانوا يجيبون في اغلب الاحيان اننا ننتظر «النوي كو» (الظرف الملائم) .

وقد اتى هذا الظرف في ربيع ١٩٦٩ . لكن « النوي كو » ليس فقط مجرد تركيب خارجي لظروف مؤاتية ، نكفي انتظار حدوثها بصبر . ان « النوي ـ كو » بالنسبة للشيوعيين هو « لحظه معقده » ، تكون في نفس الوقت نتيجه استراتيجيه ملائمه ونضال مثابر وليس « النوي كو » ثمره انتهازيه كسولـه ، بل هو حصيله واقعية نشيطة .

ان قراءة مؤلفات الرئيس هو شي منه ، تؤكد هذا الطابع العملي والملموس . ولا يوجد في هذه المؤلفات نصوص ذات طابع نظري عام ، ولكن هناك سلسلة طويلة من الدراسات السياسيه الملموسة، من التحاليل ومن التقارير التي تعكس كلها اهتماما دائما بالانغراس في الوضع الآني وبالاستفادة باكثر قدر ممكن من وضع سياسي ما وهذا في اطار الكومنترن عام ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ كما خلال الحرب ضد فرنسا عام ١٩٤٦ـ١٩٥٤ .

لكن هناك مجال بذلت فيه الحركة الشيوعية الفيتنامية مجهودا هاما على المستوى النظري ، وقدمت للحركة الشيوعية العالمية مساهمة مبتكرة وعامة في آن واحد : هذا المجال هو مجال الفكر العسكري .

الفكر العسكري الفيتنامي

لقد تاثر دون شك الفكر العسكري للشيوعيين الفيتناميين بالنظريات الصينية ، كما عرضها في فترة الحرب العالمية الثانية كل من ماو تسي تونغ وشوتيه . لكن الفكر الفيتنامي ليس مجرد « تنوعية اقليمية » للفكر الصيني .

على غرار الصينيين يؤكد الفيتناميون على الجوانب السياسية في فن حرب العصابات ، على جدلية الهجوم والدفاع ، على الوحدة التي يجب ان تربط بين المقاتلين والسكان المدنيين وعلى اهمية عنصر الوقت ، لكن مفهومهم « للدعاية المسلحة » بشكل اضافه مبتكرة ، ان « الدعاية المسلحة » هي مرحلة وسيطة بين مرحلة النضالات السياسية الجماهيرية ومرحلة الكفاح المسلح الواسع النطاق . ان الاستعانة بالقوة المسلحة في هذه المرحلة لا ياتي سوى لاعطاء ثقل اكبر لاعمال الدعاية في القرى ، وليس لضرب قوات العدو مباشرة .

ويكمن ابتكار اخر في نظرية « رؤوس حربة الهجوم الثلاثة » : فيضيف الفيتناميون الى النضال العسكري والنضال السياسي « عمل التفسير والاقناع في صفوف القوات العميلة » (وحدات حكومة سايغون) . وهذا النضال في صفوف القوات المعادية يعتبر كقطاع مستقل من النضال ، يتميز في آن واحد عن النضال السياسي والنضال العسكري .

ان معركة كمعركة ديان بيان فو ، التي شنها الجنرال جياب على نطاق غير متوقع ، وبجراءه نابوليونية ، تشهد ايضا على هذا الطابع الفيتنامي المميز . ولو كان جنرالا صينيا لانتظر سقوط المعسكر المحصن ، دون الانتقال الى الهجوم .

وكذلك فان مفهوم العلاقات بين المدنه والريف في الاستراتيجية السياسية العسكرية الفيتناميه تختلف عن المفاهيم الصينية كما تختلف عن المفاهيم الروسية ، ولا يعتقد الفيتناميون انه باستطاعتهم استلام السلطه بضربه واحدة ، على اثر انتفاضة ظافرة كما حصل في موسكو وستروغراد عام ١٩١٧ ، لكنهم لا يعتقدون ايضا انه يجب انتظار ان تحاصر الارياف المدن تدريجيا ، حسب الاستراتيجية التي طرحها المارشال لين بياو في أيلول ١٩٦٥ ، مستندا على التجربة الصينية الخاصة . ويظن الشيوعيون الفيتناميون انه من الممكن اخذ المبادرة في آن واحد في المدن وفي الارياف ، على المستوى السياسي كما على المستوى العسكري . ومنذ عام ١٩٦٦ ، هناك احياء كاملة من سايغون تسيطر عليها الجبهة عمليا ، دون ان يمكن الاعتبار ان محاصرة المدينة بشكل نهائي او حتى بشكل كافي .

الثقافة القومية

وفي مجال الثقافة ، طرح القادة الشيوعيون الفيتناميون سياسة « ابراز التراث القديم » . فهم يرفضون في آن واحد السلفية والحداثة السطحية . في بلد كفيتنام يشكل النضال ضد التاخر الاقتصادي والثقافي ضرورة اساسية .

لكن غنى وقدم التقاليد القومية يمنع اي ثوري جدي من طرحها جانبا بشكل قاطع وكامل . يجب اذا اعادة تقييم هذه التقاليد باسلوب نقدي . ويجب المحافظة على كل ما هو حري بتمتين الوعي القومي الفيتنامي ، من اجل تسليحه في النضالات التي يخوضها اليوم .

ومن هذه الزاوية ، مثلا كرس الماركسيون الفيتناميون الكثير من الوقت ومن الجهد لدراسة المؤلف الاساسي لادبهم القومي ، رواية « كيم فان كيو » التي وضعت في نهاية القرن الثامن عشر ، وقد اقيمت مناقشات حية في هانوي بين المؤرخين والكتاب ، من اجل تحديد الاطار الاجتماعي الذي وضعت فيه هذه الروايه ، ومدلولاتها الادبية والانسانية ، وجذور شعبيتها المستمرة لدى الجمهور الفيتنامي .

ان سنة التصعيد والقصف (١٩٦٥) كانت ايضا سنة العيد المئوي الثاني لنفوين دو ، مؤلف الرواية . ووضع برنامج واسع للاحتفالات ولنشر الدراسات العلمية ، ولعقد الندوات .. وقد نفذ هذا البرنامج كاملا ، رغم القنابل الامركية ، ليس فقط لمجرد الايفاء بالبرنامج ، وتنفيذ ما اتفق عليه معاندة ورغم كل ظروف بل لان الاحتفال بالعيد المئوي الثاني لمؤلف « الكيو » كان يرتدي بالنسبة للشيوعيين الفيتناميين معنى خاصا : كان هذا العيد ، عبر التمسك بمؤلف كبير من الماضي الفيتنامي ، مناسبة لتاكيد ارادة الوجود القومي والبقاء القومي لشعب فيتنام المناضل ..

ـ انتهى ـ
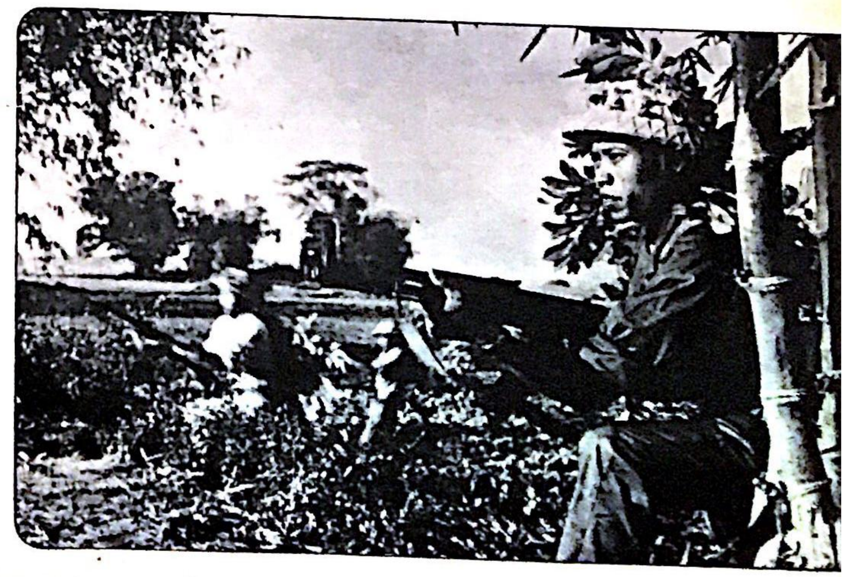
ترجمها للهدف : سليم ١٠